وقد تظافرت أسباب وأهداف كثيرة دفعت العرب إلى الخوض في الدراسات البلاغية ،ويمكن تلخيصها في :

١ ـ الدافع الديني :

وهو خدمة القرآن الكريم الذي كان معجزة تحدّى الانس والجن، ولكي يبرهنوا على اعجازه وفهموا آياته واسلوبه ليستنبطوا الاحكام منه اتجهوا إلى البلاغة باحثين فنونها وموضحين اقسامها لتكون لهم عونا على فهم القرآن ، وكان هذا الغرض من اهم الاهداف التي دفعتهم الى البحث والتأليف فيها ، وقد أشار ابو هلال العسكري إلى هذا الهدف السامي بقوله :«اعلم ـ عصمك الله للخير ووفقك عليه وفيضه لك وجعلك من اهله ـ أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله ـ جلّ ثناؤه ـ علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشد، الدّال به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رفعت اعلام الحق وأقامت منار الدين ، وازالت شبه الكفر ببراهينها ،وهتكت حجب الشك بيقينها . وقد علمنا ان الانسان اذا اتقن علم العربية وأحكمه بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة مايختصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وماشحنه من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ،وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها وقصرت عقولهم فيها، وإنما يُعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه وبراعته وسلامته وفصاحته وكمال معانيه وصفاء ألفاظه، وليس لمتسرع بالطعن فيه الزعم به، والقارىء المُهتدي بهديه، والمتكلم المشار اليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه، وبالغربي الصليب والقرشي الصريح أن لايعرف اعجاز كتاب الله ـ تعالى ـ إلاّ من الجهة التي يعرفه منها العربي والقبطي، أو انه يستدل عليه بما استدل به العالم النبيّ ، فينبغي من علم الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ـ تعالى ـ

ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تلو المعرفة بالله جلّ اسمه (١).

٢ ـ الغرض التعليمي:

وهو تعليم الناشئة اللغة العربية ومعرفة أساليبها بعد أن اتصل العرب بأمم شتى وأدى ذلك الاتصال إلى فساد اللغة ودخول اللحن فيها. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المسلمين كانوا بحاجة إلى تعلم العربية وبلاغتها ليفهموا القرآن الكريم وليعيشوا في ظل دولة لغتها العربية. وكانت المقدرة الكتابية في كثير من الأحيان السبيل الموصل إلى المناصب الرفيعة وكان على من يسعى إلى تسنمها أن يكون كاتباً له في الأدب وفنونه يد طولى وله أسلوب رفيع. فلكي يتعلم العربي الناشيء في بيئة امتزجت فيها اللغات بلغته ويصبح قادراً على التعبير الحسن والنظم الرائق وانشاء الرسائل، ولكي يتعلم المسلم لغة دينه ولغة الدولة التي يعيش في ظلها، ولكي يصل الناس إلى أرقى المناصب وأعلى الرتب ـ كان عليهم جميعاً أن يعتنوا بالعربية، ولا يتم ذلك الإتقان إلا بمعرفة ألفاظها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها، والبلاغة إحدى السبل التي توصل إلى هذه الغاية وتخدمها.

٣ ـ الغرض النقدي:

وهو تمييز الكلام الحسن من الرديء والموازنة بين القصائد والخطب والرسائل: والبلاغة تعين الناقد كثيراً لأنها تقدم له الآلة التي تعينه على الفهم والحكم، ولذلك نجد القدماء يعنون عناية كبيرة بها، ويؤلفون الكتب فيها؛ وقد اشار العسكري إلى الهدفين التعليمي والنقدي بقوله: «ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب مأثورة، منها ان صاحب العربية اذا أخلّ بطلبه وفرّط في التماسه فاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته مغنّى على جميع محاسنه وعمّى سائر فضائله، لانه اذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح،

(١) كتاب الصناعتين ص ١ ـ ٢ .